أعداء الديمقراطية الحميمون

Tzvetan Todorov

Les ennemis intimes de la democratie

فصلت الثقافة الأوروبية الحديثة، بأشكال مختلفة، بين الكاتب المختص، الذي يريد أن يكون أستاذاً جامعيـاً وعالمـاً منغلقاً على اختصاصـه، والمثقف، الذي يفتح اختصاصه على قضايـا الحياة اليومية وشـؤون البـشر، وعلى ما يـدور في العالم من صراع وتصادم. فقد كان جان بول سـارتر، في طور من حياته، فيلسوفاً مكتفياً بفلسفته، وبتلك اللغة الصعبة المختصة التي كتب بها «الوجود والعدم». ولم يتغـيّر كثيراً وهو ينزاح إلى الرواية والمسرحية والنقـد الأدبي، إلى أن جذبته قضايا «الثورة الجزائرية» و «الثورة الكوبية»، وأصبح الشأن السياسي جزءاً من حياته وكتابته. ولم يكن مسار اللغوي الأمريكي ناحوم تشومسـكي مختلفاً، فبعد دراسـات باهرة في علم اللغة، أكسـبته شـهرة عالمية، دفعه حسه الأخلاقـي الرفيع إلى الكتابة عن «حمام الدم في أندونيسـيا»، الذي أشرفت عليه المخابرات المركزية، وعن حقوق الإنسـان في العالم أجمع، وعن «الحرب والسـلام في الشرق الأوسط»، وصولاً إلى موقف حاسـم من الولايات المتحدة ودولة إسرائيل: وإلى هذا الشـكل من الثقافة النقدية ينتمي : تزفيتان تودوروف.

اسـتهل تودوروف حياته المعرفية ناقداً أدبياً، محاطاً بنصوص متعددة اللغات، ووصل لاحقاً إلى نقد العالم كله، باحثاً عن لغة إنسـانية جامعة. بدأت شـهرته، وهو البلغاري الذي حصل على جنسـية فرنسية، مع فرنسيين آخرين نصّبوا البنيوية، في ستينات القرن الماضي، علماً للعلوم، واعتبروا أن ما لا تقول به «البنية» أيديولوجيا، تليق بالسلطات التقليدية ولا تليق بالعلماء. عاد بعد أربعين عاماً إلى المبادئ الإنسـانية البسيطة، التي تدين القتل و «القنابل الديمقراطية»، التي تقطع رأس «المتخلّف»

قبل أن تعترف بوجوده، وعاد إلى لغة شـفافة واضحة، تحتكم إلى الحس الإنسـاني، ولا يؤرّقها الفرق بين العلم والأيديولوجيا.

قبـل أن يصل إلى كتابه «فتح أمريكا»، عام ١٩٨٢، كان تزفيتـان تودوروف قد أنجز مكتبة في النقد الأدبي ، جمعـت بين «الشـعرية» و«علـوم اللغة»، وبين شـعرية النثر والأدب العجائبـي، مروراً بـ «ديكاميرون» وقواعده النحوية، وبميخائيل باختين والمبدأ الحواري، ... دشّن مساره النقدي بنصوص روسـية نشرهـا في كتاب: «نظريـة الأدب» ـ ١٩٦٥ ـ مصرّحاً بأنه ينتمي إلى الشـكليين الروس، وأنه يطوّر أفكارهم في سـياق مختلف. غير أن ذلك الانبهار البنيوي، الموطّد بنسب شكلاني شهير، ما لبث أن سـقط عـن موقعه، من دون صدى مهيب، بعد حوالي عشريـن عاماً حين نشر الناقد الهارب من الشـيوعية عمله «نقد النقد» ـ ١٩٨٤، مصرّحاً بفقر النقد البنيوي وقصوره. ولعل إحساسـه بالحياد الرخو لهذا النقد، الذي يمكن أن يوظّف لصالح «الثائرين» والخانعين معاً، هو الذي دفعه لاحقاً إلى وضع كتابه الصغير «الأدب في خطر» ـ ٢٠٠٧ـ الذي كشف فيه عن الاستعمال الإتباعي المحافظ لذلك «النقد الأدبي» ، الذي أراد، في سياق آخر، أن يثور على كل شيء.

تمكـن قراءة كتاب تودوروف الأخير: «أعداء الديمقراطية الحميمون» في ذاته وفي كتب المؤلف التي سـبقته في أن: يُقرأ في ذاته بسبب «الموضوع الأساسي» الذي يعالجه، القائل بأن أدعياء الديمقراطية هم أعداء الديمقراطية قبل غيرهم، ويُقرأ في كتب تودوروف الأخرى، التي ندّدت بالاستبداد والنظام العالمي الجديد وتدمير الشعوب وأخطاء التنوير الأوروبي والثورة الفرنسية، وتداعي القيم الإنسانية في المجتمع الاستهلاكي، .. لذا يبدو الكتاب امتداداً توضيحياً لما سبقه، ويبدو غيره مداخل متعددة له، منذ كتاب «نحن والآخرون» ـ ١٩٨٩، الذي تلاه بعد عامين: «غويا على ضوء عصر الأنوار».

يتضمن عنوان الكتاب الجديد مفارقة ساخرة. فمن المتوقع إن كانت له علاقة حميمة مع الأيديولوجيا الغربيـة المسـيطرة، أن يعطف العداء للديمقراطية على ما هو بعيد عـن «المركزية الغربية»، صينياً كان أو عاملاً إفريقياً مهاجراً، أو مسـلماً متعصّباً «مزنّراً بالمواد المتفجّرة». غير أن خطاب تودوروف، الهاجس بـ «ثمن الحقيقة»، يحيل على الدول الغربية الكبرى المنتصرة بترسـاناتها العسـكرية، وعلى أحزاب سياسـية أوروبية صاعـدة، تطالب بتطهير أوروبا من غير الأوروبيين. والأسـاسي في الخطاب المشـبع بالوضوح ماثل في أمرين أساسيين: أحدهما لعبة النفاق والمخادعة التي تقنع الدول الغربية بنـشر الديمقراطية في «بلـدان غير ديمقراطية»، بـأدوات غير ديمقراطية، قوامهـا القنابل والغارات الجويـة ، وثانيهما اختراع «الأخطار» وتصنيعها والرد عليها. فبعد زوال النازية والشـيوعية الخطران

الأكبران في القرن العشرين، كما يقول المؤلف، استولدت السلطة الإعلامية الغربية خطرين جديدين، هما: الإسـلام والإرهاب، معتبرة أن الإسـلام نازية أخرى وأن الشيوعية التي ماتت، ولم تمت، تناسلت في مخلوق جديد عنوانه : الإرهاب.

نقل تصنيع الإرهاب، في السـوق الإعلاميـة الكونية، الديمقراطية الغربيـة «الأصيلة» من موقع إلى آخر، جعلها عدواً للديمقراطية بحجة الدفاع عنها. صدر الاستبدال عن تطرّف في النظر إلى الذات، إذ الغرب هو الحقيقة ولا حقيقة خارجه، وعن تطرف في النظر إلى الآخر، الذي لا يجب أن يوجد إلا كما أراده الغرب أن يكون. يتراءى في التطرف الأول «التألّه الذاتي»، الذي يفترض طرفاً إنسـانياً معصوماً عن الخطأ، قنابله فضيلة وفضائله قنابل، وتتراءى في الثاني نزعة رسولية حاسمة، تقتلع من «الإنسان المستبد» ما يجب اقتلاعه، وتخبره بأنّ عليه أن يكون «غربياً» أو أن لا يكون. لا جديد في، الحالين، إلا بما سمحت به الليبرالية الجديدة ومنحته كساء على صورتها، فالجوهر الإنساني المتألّه امتداد مشوّه لفكر التنوير الأوروبي، الذي مجّد الإنسـان واعترف بمحدودية إمكانياته، والرسـولية السياسية متاع قديم، يعود إلى القرن التاسع عشر، مع فرق حاسم أضافته الليبرالية الجديدة المنتصرة، التي جعلت إنسانية القرن الحادي والعشرين تحتكم إلى طرف وحيد مسيطر.

انشغل كتاب تودوروف بموضوع الإنسان العاجز، نظرياً وعملياً، عن امتلاك الحقيقة، وبحلم المساواة بـين الشـعوب المختلفة، المؤجل إلى زمن غير منظور. ذلك أن الغـرب الراهن أعاد صوغ الموضوعين معاً، واشتق «الكمال الإنساني» من التفوق التقني والعسكري والاقتصادي، واشتق تفاوت البشر من اختلاف القوة عن الضعف، إذ القوي هو الفضيلة، وإذا الضعيف يحتاج إلى أكثر من عقاب ليعرف الصـواب. رجع تودوروف، الذي يندد بالديمقراطية المسـتبدة،إن صح القول، إلى الماضي، مستأنسـاً بحديث فلسفي قديم الجذور.

فمنذ زمن بعيد عالج رجلا الدين المسـيحيان: بيلاج وسـان أوغسـطين موضوعي: الحرية والإرادة، حيث افترض الأول أن في قدرات الإنسان ما يقرّبه من الله، بينما أكد الثاني حاجة الإنسان المستمرة إلى الله وعجزه عن الوصول إلى الكمال. ومن دون التوقف أمام الغلبة النظرية، لهذا الطرف أو ذاك، فما قصده المؤلف هو: التطرف، في جذره القديم، ذلك أن الزعم الذي يؤلّه الإنسـان يقسـم البشر إلى خالق عالي المرتبة وجدير بالطاعة، وإلى مخلوق أدنى دوره الانصياع والأمتثال. ولهذا الحديث، في شـكليه، جذور في عصر التنوير الأوروبي، إذ في فلسفة ديكارت ما يستعيض عن الله الإنسان، وإذ في خطابي جان جاك روسـو ومونتسيكيو ما ينفي عن الإنسان «تهمة الكمال»، ويرى الإنسان في نقصه

وأحكامه النسبية. والواضح في المثالين المستعادين، في شكليهما الديني والتنويري، تفاوت البشر، الذي يأخذ تسـويغات مختلفة، منتهياً اليوم إلى رفض التعددية الثقافية. ولعل عقيدة لا تسـاوي البشر، التـي اعتنقتها أحزاب سياسـية صاعدة في العقـود الثلاثة، هي التي تقنـع المتطرفين في الغرب، أي أعداء الديمقراطية الحميمين، بلغة تودوروف، بان العمال المسلمين المهاجرين يهدّدون نقاء الحضارة الأوربيـة، لأنَّ الاختلاط اليومي بين المتفوقين وغيرهم يؤثر، سـلباً، على الطرف الذي اختص بالإبداع والانضباط وإتقان الإنتاج.

تأمل تودوروف، في كتابه الأخير، زيف ديمقراطية «الديمقراطيين» في اتجاهين: الاتجاه الذي يأخذ على عاتقه تمدين العراق وأفغانستان وليبيا متوسلاً القنابل والصواريخ والاتجاه الذي يمجد الإنسان الحر والمبادرة، في زمن الليبرالية الجديدة، ويستعيض عن الإنسان بإرادة السوق، واصلاً إلى عدد قليل من «الأفـراد الأثرياء» يتحكمون بالغالبية العظمى من البشر. والنتيجة لا تشـير إلى الديمقراطية ولا إلى عصر التنوير، بل إلى تلك المفارقة التي تحدث عنها شكسـبير، منذ قرون، التي تعطف الحق والذكاء والجمال على القوة وتعطف الفضيلة على سـطوة النقود. والنتيجة التي تشـيع التشـاؤم ماثلة في مراوحة القهر الإنسـاني، حيث في الليبرالية «العلمية» التي أعقبت سقوط جدار برلين عام ١٩٨٩، ما لا يختلف عن «الاشتراكية العلمية»، التي عطّلت الفرد باسم «المجموع المؤمم»، كما لو كان السوق الليبرالي قد أخذ مكان «حزب الطبقة العاملة» البيروقراطي.

والسـؤال المشروع هو: ما الأسـباب التي دعت تـودوروف إلى الانتقال مـن اختصاص أدبي نخبوي اللغـة إلى الكتابة عن أمر عام بلغة واضحة لا تحتـاج إلى الاختصاص؟ يكمن الجواب ربما في تطوير معنى النقد وتوسـيع آفاقه والانتقال، تالياً، من نقد النصوص، التي تهم فئة محدودة من القراء، إلى نقـد الواقع، الذي يتجاوز مقولة القارئ إلى مقولة الإنسـان العام. وربما يكمن في الزهد بما يدعى» النخبة» والخروج من فضائها الضيق، وهو ما لمحه إدوارد سعيد، مبكراً، حين رأى العلاقة بين «النخبة النقدية المختصة «والسياسـة المحافظة في زمن رونالد ريغـن. ولعل الزهد بالاختصاص الضيق، كما الانفتاح على الحياة اليومية، هو ما نقل الناقدين سعيد وتودوروف من النقد الأدبي إلى النقد الثقافي وأقنعهـما، معـاً، بـ «النقد الدنيوي»، إذ النـص جزء من العالم والعالم جزء مـن النص، ومن العبث الفصل بينهما.

يقوم النقد الأدبي على تعددية نظرية خاصة به، تضيف علم النفس إلى علم اللغة وتعطف الطرفين على تاريخ الأدب والأدب المقارن، بينما تستدعي قراءة العالم، بلغة الفيلسوف الألماني هانز بلومنبيرغ،

تعددية أكثر اتســاعاً وشمولاً ، قوامها السياســة وعلم التاريخ وتاريخ الأفكار، وقوامها أولاً ما يجري على الأرض، بدءاً من آلام الجياع وصولاً إلى الحملات العســكرية، التي تعيد تخليق مدن كثيرة. وفي الحــالات جميعاً هناك التجربة الذاتية، التي تحــذف وتضيف وتعيد ترتيب الأفكار. فبعد «التجربة البلغارية» في بلد شيوعي يمنع الحق في الكلام، جاءت «التجربة الفرنسية» في بلد رأسمالي ديمقراطي، يســمح للمثقف بحرية القول والحركة. غير أن هذه التجربة، التي كانت تصطدم بالرقابة البوليسية اصطدمــت، لاحقاً، بصورة «حلف الأطلسي» التي تدفع العســكري الفرنــسي إلى «مراقبة» البشر في البلدان التي عليها أن «تتعلم» مبادئ الديمقراطية. ولعل الانتقال من الرقابة البلغارية المحدودة إلى الرقابة الأطلسية الواسعة النفوذ هو ما أشاع تشاؤماً واسعاً في خطاب الناقد، ودفعه إلى قياس اللاحق على السابق، أو بالعكس، تعبيراً عن يأس لا بدّ منه، يصاحب المثقف في الأنظمة جميعاً. حين يستعيد تودوروف شيئاً من الأمل التنويري الخاص بحكومة عالمية يقول» «طالما أنه لا يوجد حكومة عالمية، وهو مطلب ضعيف الجاذبية، ستبقى العدالة الكونية واجهة لمصالح الأطراف القوية» ص: ـ ١٠١ ـ

العدالة أمل صعب المنال، والدعوة إلى العدالة واجب أخلاقي، وحلم المثقف مهنة صعبة، تتمســك بعدالــة لا تــأتي وترنو إلى أمل متجدد التاجيل. ليس في الانتقال من نقــد النصوص إلى نقد العالم ما يبعــث في الروح المسرّة، لكنه انتقال لا تفلح الأرواح الخيّرة في الهرب منه. والمثقف، في النهاية، ينقد ويشــجب ويجابه ويقارن بين الموجود والمنشود، مشدوداً إلى مرجع وحيد هو : الحقيقة التي يمكن أن تقرأ بأشكال متعددة.

ف. درّاج